

## مشكلة اللغة العربية في الأدب المعاصر

من حيث الإفراز اليومي لمديد العناصر والأجسام والمركبات التي لم يسبق لها اسم في فاموس أو استعمال في الحياة .

فالادب المعاصر هو ما يصر عن مشكلات الإنسان المعاصر ، وما يعالج حاجيات المجتمع المعاصر بلغة معاصرة يفهمها من ينطقها في كل أرجاء الوطن الذي تنمي إليه ويستعملها في كل مجالات الحياة بحيث تنتشر الكلمة الحاملة لمعنى محدد في مجتمع متجانس التركيب مثلما تنتقل الموجة الصوتية في وسط متجانس التكوين دون أن تجد في طريقها عوائق أو عوائق تمنعها من النفاذ أو تصدها من العبور أو انعكاسها على الحد الفاصل لاستعمالها ، وبالتالي لا تتجاوز حدود القرية أو المدينة أو الجهة أو القطر ، كما هو الحال في كتابات ادباء العامية واللهجات المحلية الذين لا ينشر صوتهم أكثر من مدى الرؤية لبطرهم .

فالادب المعاصر هو أيضا ما يكتب بلغة لا نعزلها حدود افطار أو جهات ذات تركيب اجتماعي واحد ، وإنما انعكاسها حدود امم بخلاف في الاصل والتكوين والتركيب ، وهو كذلك ما يستعمل لغة تسمح كل مجالات النشاط الانساني ماديا وفكريا دون عزل أو انفصال ، ومن غير نعل في النطق ، أو استهجان في السمع أو خلل في قواعد اللغة . فالطور الذي عليه اللغة والادب المعاصر يشبه من حيث الحالة وضع العدسة المبعدة التي لا يلتقي فيها الطموح مع الواقع الا في البؤرة الخيالية للماضي .

لقد واجهت اللغة العربية تحديا حضاريا في صدر الاسلام . وتمكنت من هضم حضارة عصرها في جميع المجالات حتى أصبحت لغة الفكر والعلم والحياة بفضل ما أنعم الله به على هذه الامة من كتاب منزل مبین حفظ للغة سحرها وفصاحتها واعجازها وجعلها تتفاعل مع الكائن والكون ومع المادة والروح ، تفاعلا حيا بالاخذ والاعطاء ، مستعملة طرق النحت والقياس والاشتقاق والتوليد والتعريب لكل جديد فسي الاكتشاف وحديث في المعنى ، حتى أصبحت لغة تعبر عن كل المعانسي الفكرية والاكتشافات العلمية والمعاملات الاقتصادية والاتجاهات السياسية التي وصلت اليها قمة الحضارة الانسانية بالفاظ عذبة السمع وبكلمات سهلة النطق تخطت بعد المكان وتجاوزت حدود الزمان واعطت للغة صفة الحياة في كل معانيها وللادب صفة الشمول في جميع جوانبه . ونتيجة لعوامل تاريخية معينة - مثل زحف التتار والحروب الصليبية والهجمات الاستعمارية بقصد تقويض حضارتنا العربية الاسلامية من شل لطورها عنصرا بعد عنصر ، وتفكيكها رابطة اثر رابطة ، وتجزئة وطنها الى اشتات من الارض وفصائل من الشعوب حتى يزول التكامل وينفصم التجاذب ويتزايد التناقض ، وتحول ايجابيات الحضارة الى سلبيات التخلف ، نتيجة لذلك كله - ما قد ورثه جيلنا وما تأثر به وما عبر عنه الكثير بالقبول والاستسلام للاسواق الواقع حينا ، أو بالرفض والتحدي حينا آخر .

وتجلى هذا الوضع في الصراع القائم بين دعاة العامية وادباء

استسمح الادباء ان نطقت على عرق هذا الموضوع الخاص بمشكلة اللغة العربية في مجال الادب الذي ضعف جذبه عند الشباب وتقلص ظله في الحياة المعاصرة ، فان كانت اللغة العربية مشكلة في الادب ، فهي عفة صعبة التجاوز في نظر البعض لعدم استيعابها جل مكتشفات التقنية والعلم ، ضاقتي الدفع للتقدم المادي ، وفوتى التحريك للحياة المعاصرة في جميع اجوانب وفي مختلف الاتجاهات .

هنا مؤتمر أجدر من مؤتمر ادباء في أن يتوسع في زاوية بحثه للمشكلة ، وتحليله للاسباب المعطلة لفته وتقديمه للحلول الصغيرة للوضع وتلزاه بالعمل الجاد وبالتنفيذ الصائب حتى يكون فسي مسوى الحدث التاريخي فصلا وتأثيرا ووظوفا ؟

فمشكلة اللغة العربية لا تخص اذا الادب المعاصر مثلما تمس الحياة المعاصرة انني يحتاج فيها الفرد للتصبير عن كل ما نفع عليه حواسه ، وما يجول في خاطره من أفكار وأحداث ، إذ اللغة تعبر عن تفكير أو اصطلاح تتجسيم ، أو رمز لمحسوس ، تتطور كلما اسع انعكس ونفذ الحس وازداد التجسيم ، متفاعلة في ذلك مع الوسط الداخلي الذي نستمد منه عناصر النمو واتجاه التطور ، ومثارة بناحيط الخارجي لاعطاء ما نفرزه من ابتكار مادي وجدديفكري . وتميز حيوية اللغة بقابليتها للاستيعاب ، وطواعيتها للاستعمال ، وهدرتها على التحويل والتعويض والتوليد حتى نسابر اكتشاف العلم وتقدم الفكر وانتاج الصناعة .

وحسب هذا الاطار اتوظيفي تلفة ، نستطيع العول بأن اللغة العربية تمر الان بازمة في ذاتها من حيث السكون ، وتكون مشكلة في مجتمعها من حيث الاختلاف في جميع المجالات الادبية والعلمية والاقتصادية والتربوية ، لا بد لنا من ربط هذه بتلك في معادلة حركية نطلق عليها علميا بتابع الطور :

اللغة = تابع ( الانسان ) في المكان والزمان ، أي مهمما تقدم الانسان تقدمت لفته وكلمما تخلف تخلفت ، وحيثما مات ماتت في كل موقع وفي كل عهد ، وبهذا التابع الرياضي ، نصبت ثوابت اللغة في القواعد النحوية والصرفية ونبحث عن متغيراتها في ابعادها المكانية التي تؤثر فيها وتتأثر بها ، وفي بعدها الزماني الذي يميز حاضر اللغة عن ماضيها ومستقبلها .

ومن خلال تجميع كل العوامل الساكنة والمتحركة ، النابتة والمتغيرة ، واحصاء جميع المركبات المتصاحبة والمتناقضة : يمكن أن نرسم صورة الطور الذي تمر به اللغة العربية اليوم ونستشف ملامحه في المستقبل بادق رؤية واقعية واتشير قيمة احتمالية ، وذلك بما نضع من مؤثرات وما نهى من وسائل ، وما نجمع من عناصر ، وما نسخر من طاقات .

فهذه الطريقة العلمية في البحث والمنهج التجريبي فسي الدراسة ، يمكن ان نساهم في معالجة مشكلة اللغة العربية في الحياة المعاصرة ، وان كنا من غير اللغويين والادباء ، من خلال زاوية رؤيتنا للمشكلة في اصعب ميدان للغة واشق مجال في الكتابة

اللهجات المحلية من جهة ، تنفيذاً لمخططات التفسير وتركيزاً لعقيدة الافليمية والشعوبية خدمة لاهداف استعمارية عن قصد أو عن جهل بالاحداث او عن حسن نية .

ومن جهة اخرى يبين دعاء الفصحى التي نزل بها القرآن ويفهمها كل من ينتمي للمجتمع العربي والتي تكون هزة الوصل بين الافراد والافطار والاجيال وتمثل عنصر التنشيط في تجميع الشتات ووحدة الاجزاء .

ومن الادب المزيف ايضا الدعوات المشبوهة التي تنادي بتعويض الحروف العربية بالحروف اللاتينية حتى تستجيب في نظرهم للتطور وتعتبر عن مكتشفات الطهر ، وكان اللغة هي الانسان والفعل هو اللسان ! ومن هذا أتفيل الصراع الحاد ايضا بين دعاء التعريب لاسنرجاع التائه في الخيال والعجز والاحلام الى حقيقته وواقفه .

وكذلك المهاجر الذي يلهث عن غداء فكره في ضباب اوروباً او في جليد سيبيريا او في سرتب انتبت او في صحراء نفاذا ، الى اصل حضارته ومنبع ذاته الخاليين من سموم التعتن وجنيد الجمود وعوايق التقدم والتطور ، وبين دعاء المسخ والذوبان سواء بالتبشير والتنصيب او بالولاء والانماء ، مثلما يبدو ذلك جليا في المحافظة ماديا وفكريا ولغويا على المناهج الاستعمارية في كل الميادين ، او تقليد مناهج اجنبية تقليدا خاليا من روح التجديد وطاعة الابتكار .

وحسب هذه الخلفية من الصراع والتناقض والواجهة المروضة من السلبيات والمشاكل التي بولد عن نفاطها آدب معبر عن كل اتجاه ، ولغة تميز كل صنف ، ومنهج يمثل كل اختيار ، يمكننا ان نحدد ملامحنا ونعين هدفنا ونختار الطريقة التي بها نحقق الغاية ونصيب الهدف ، فنحدث التفسير الثوري في جميع ابعاده الفكرية والثقافية والتربوية والعلمية ويكون الادب فيه حفا المرآة العاكسة للاتجاه الحضاري محصلة لسلك الابعاد واللغة العربية فيه ، الوسيلة الوحيدة للاتصال والتعبير والمعاملة والتعليم .

فهذا واضح وهو رد فعل تفعل ، ورفض لوضع ، وتحديد واقع ، واستجابة لحضارة ، ومطمح لوحدة تعيد لنا المجد وبنينا لنا الغدوة في عصر لا تقدم فيه للشئات ولا حياة فيه للانفصال والانعزال ، ولا مكان فيه للملوك الطوائف ، فأول طريق نعتقد سلوكه للوصول الى ذلك الهدف هو الانفصال لاجل توحيد المناهج التربوية ونخليصها من شوائب التناقض ومن هجين الطرق ومن آخلاف محنوى الكسب والتأليف ومن سلبيات العزلة والانعزال ، بتوسيع زاوية الرؤية العادة في كل منهج الى زاوية منفرجة تمسح كل المنظمة العربية من المحيط الى الخليج ، وبلغة واحدة في المعنى واللفظ والمصطلح ، حتى يشمر كل فرد ويعمل كل فطر عمل العنصر في مركب والعضو في جسم ، سواء كان ذلك بحركة ارادية منظمه أو غير ارادية هادفة .

ومن هو اجدر من المفكرين القوميين والادباء الملتزمين لتحقيق هذه الغاية خاصة وان اغلبهم ينتمي للتعليم وجميعهم يشع بهذا الشعور ويصبو الى ذاك الطموح ، فالاديب المعاصر هو الذي يدفع بانجتمع الى حياة معاصرة نلبي رغبة الامة ويتحمل مسئولية التنفيذ ومشقة التغيير .

ثاني طريق نرى ساوكة هو استعمال اللغة العربية من طرف المهندس والطبيب والفني في مجالات العلم للاسماء الاجنبية التي لم تدخل بعد فواميس اللغة ولم سبق لها معنى في الحياة بالفضل والنهذيب وحسب اوزان اللغة ونطق اللسان ، كما اضطر اجدادنا في علاقاتهم مع الافوام الجاورة ان ياخذوا الاسم الاعجمي ، فيصقلونه وبهذبونه حتى يخرج كأنه عربي صميم واصبحت تلك الالفاظ المستعمارة عربية فصيحة ما دامت تخضع لقواعد اللغة ونحوها دون اي تمييز ، وما دام تغلبها الذوق السليم في عذوبة الجرس وسهولة اللفظ دون نفور او نشاز . فقد قال ابو علي الفارسي وابن جني : « ما فيس على كلام العرب فهو من كلام العرب » .

لقد عمد العرب الى التعريب منذ الجاهلية ، فعربوا عسبن الفارسية : الابريق والسندس والدولاب والكمك والسמיד والجلاب والنرجس .. الخ وعربوا عن الهندية : الزنجبيل والفلفل والشطرنج والكافور والمسك والقرنفل .. الخ وعن اليونانية : الفسطاس والقنطار .. الخ .

وفي صدر الاسلام عرب العرب ايضا عن الفارسية : الكوز والجرة والخوان والطبق والقصعة والفتان والزنبق والمنطيس والمارستان .

وبهذا النفتح اصبحت اللغة العربية غنية مسنوعة لحضارة ذلك العصر العلهية والفكرية والفلسفية . وفي عصرنا الحاضر دخلت منذ قرن آف من المصطلحات والمفردات الى اللغة العربية تعبر عما جد من تقدم حضاري في جميع الميادين لم يطلع عليها اساندة اللغة في بلادنا ولم تر استعمالها في كتابات الادباء او في وسائل الاعلام اوفي اجهزة الادارة او في مناهج التعليم في بعض الافطار العربية ، مما جعل البعض يتهم عن جهل قصور اللغة العربية عن مواكبة العصر ، في الحال انه يجهل ايضا اللغة العلمية الاجنبية وما تفرزه يوميا من الفاظ جديدة . فقد فال المهندس وجيه السمان عضو مجمع اللغة العربية بدمشق : « ان حركة التعريب تسير الان بخطى حثيثة بعد ان تسلمتها الايدي المختصة بها ، فاهتمت بها الجامعة العربية عن طريق المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بواسطة المكتب الدائم لتنسيق التعريب الذي اعد لنا مشاريع المعاجم التي بين ايدينا ، واشهد بانه عمل فيم جدا . وبفضل الجامع اللغوية والجامعات ومختلف الوزارات العلمية لا بد من ان تؤتي هذه الجهود المتكاثفة ثمارها الطيبة في مستقبل قريب » .

ولا يفت في عضدنا بأخرنا في مضمار التعريب ، فان حركة وضع المصطلحات قائمة على قدم وساق حتى في الدول المتقدمة في العلم ، وهي حركة دائمة لا تف ابدأ ما دام العلم يتقدم ويفتح كل يوم مجالات جديدة ويضع مصطلحات حديثة . وقد غزت المصطلحات الاجنبية كل لفة بأخرت ولو قليلا في تدارك شأنها . وما هي ذي فرنسا ، على علو باعها في العلوم ، تشكو من غزو المصطلحات الانكليزية لها ، فيقول الاستاذ ابيامبل ، الاستاذ بجامعة باريس بمهاجمة هذا الغزو في كتابه : « هل تحدثون الفرنكلية » كما تقوم الفرنسية بعرض المناهج التي يمكن بها معالجة السيل المتدفق من المصطلحات الانكليزية لوضع ما يقابلها باللغة الفرنسية فاذا كان ابناء الفلسفة الفرنسية يشكون فما بالننا نحن اذن ؟

ولهذا فان شكوانا من قصور لغتنا او اتهامنا لها بالمعجز فانما هو جهل بمكامن الطاقة ومركزات القوة المحركة للعربية - اولا - وفصور فكري ونقص كفاءة علمية - ثانيا - وعدم استعمال ما هو موجود او لما استجد - ثالثا - سواء في الاعلام او الادارة او التعليم .

فاللغة تحيا بالاستعمال وتموت بالاهمال ، وموت اللغة دليل على موت اهله ماديا وفكريا او حضاريا ، ولذلك لا مناص لنا من فتح النوافذ المسدودة والابواب المفلقة على لغتنا لتحتوي الدخيل من المفردات السليمة البنية وتنقل الالفاظ العذبة الجرس والصيغ السهلة النطق مثلما فعل الافدمون من الاجداد وما اتبعته لفسات الغرب والشرق المعاصرة دون خوف من فساد او خجل من استعمال . فالكثير من الالفاظ من كل اللغات تموت يوميا بموت استعمالها او بطلان مدلولها . والكثير يولد بمولد عنصر او اكتشاف مركب لم يعرف له اسم سابق ولا معنى قديم ، ذلك هو قانون الحياة المميز للتقدم والخاص بالتطور والتجديد في كل اللغات .

احمد الشرفي

تونس